

الدعوة الى التواضع الفعلي بقلم : عبد القادر حافظ

قرات بامعان بالغ نقد الابحاث المنشورة في العدد الحادي عشر بقلم الاستاذ عبد الجليل حسن (1) . والجدير بالملاحظة بادىء ذي بدء هو احساسى بارتياح تام عند اطلاعي على احدى العبارات التي استهل بها نقده والتي تقول : « واحسب ان افضل ما يتواصى به المثقفون العرب الآن - واعتقد في كل وقت ايضا - هو الدعوة الى التواضع فيما يكتبون ويقولون ... الخ » . وقد أعجبتني هذه العبارة الممتازة (2) لا لسبب الا لان كل من هب ودب من الذين امتلكوا القدرة على صياغة العبارات ، استغلوا هذه الامكانية الذاتية لاطلاق الاحكام الارتجالية كيفما شاءت أهواؤهم وذهبت تصوراتهم الشخصية . الامر الذي أدى بهم الى ولوج آفاق فكرية خطيرة يتردد الكثير من المثقفين بل والكتاب أيضا في ولوجها والخوض في غمارها .

الدعوة اذن مخلصه وصادرة عن وجدان واع بالمسؤولية الفكرية . الا انني والحق يقال فوجئت عندما واصلت الاطلاع على البقية الباقية من النقد . وأول ما لفت نظري بشكل خاص وبارز هو التناقض الصارخ ما بين دعوة التواضع الكريمة واسترسال الناقد في التهجم حسب المنهج الذاتي . وحظي كان من تهجمه كبيرا . وتساءلت هل هذا نقد موضوعي علمي أم هو اتجاه للسخرية والاستخفاف والفرور والافحام بشكل لا ترضاه أدنى المناهج النقدية المحترمة فكيف بالخلق الفويم ؟ وكيف سنكون حال الكتاب الجدد الذين سيتجرأون للكتابة في «الاداب» ليجدوا بعد حين نقدا لا علميا ولا موضوعيا ؟ ان الناقد المحترم اعترض على ما ذهب اليه . وكان وجه اعتراضه يتصب على النقاط التالية :

- 1 - الكلام عن المرض والديالكتيك غريب ومضحك معا .
- 2 - المرض يجعل الناس ينشطون بالميتافيزيقيا .
- 3 - لماذا زججت هنا بالادبيات الماركسية ؟
- 4 - لماذا خصصت احشاء الانسان بحمل ديالكتيك الحياة والموت؟
- 5 - الديالكتيك شيء يحمل .
- 6 - محاولات التفلسف الساذجة جعلتني اتهم الجماهير بالتعاس واللامبالاة والسكنة .

7 - كان الافضل أن اتناول نقطة واحدة فقط من البحث كالثقافة الطبيعية .

والحق ان المرض يا سيدي يجعل المريض يفكر بعالم الميتافيزيقيا

(1) ان الكلام الشفوي يبقى فحسب شيئا مجردا . ومتى اخذ دوره الى القرباس ، يتحول من كلام الى عمل . اي يصبح صاحبه مسؤولا عما جاء فيه . بالإضافة الى ان الكلام الميني (الكتابة) له فاعلية سلبية أو ايجابية حسب محتواه الاجتماعي والتاريخي . فالتواضع يبقى مجرد دعوة اخلاقية طيبة ان لم يتحول الى فعل من خلال الممارسة العينية المباشرة .

(2) يتجسد التواضع الفعلي بشخصية البرت آنستين ، صاحب النظرية النسبية الجديدة (تمييزا عن نسبية نيوتن) اذ اجاب ما معناه عندما سئل عن رايه بنفسه كعالم وفيلسوف : « انني كالطفل الذي يلهو بحصاة على شاطئ البحر » ، ويتصد بذلك فيما أظن بحر العلم والمعرفة . فما رأي القابعين في الابراج العاجية - سلاطين الادب والفكر والنقد - في هذا القول ؟

الوهمي (الجنة ، النار .. الخ) اما اعتراضك : « والا كانت أكثر الشعوب مرضا أكثرها فلسفات عن الموت » ولم لا ؟ هالك الهند مثلا . انها شعب متخلف وفقير ويعج بالمرضى . افتح أي كتاب يبحث بالفلسفة الهندية تجد الموت يأخذ قدحه الملى من الاهتمام والمعالجة . فالفلسفة الهندية هي فلسفة ميتافيزيقية . يعني انها تركز في الجوهري بحوثها الاساسية حول عالم الماورائيات ، خارج الواقع ، فوق الحركة التاريخيه والاجتماعيه . وما يكون غير الموت الصلة الوهمي - حسب مزاعم هذه الفلسفات المثالية - بعالم ما وراء الطبيعة ؟ ماذا يفصد الناقد بان الديالكتيك ليس شيئا يحمل ؟

ان ذرة من الاوكسجين عندما تتحد بذرتي الهيدروجين ينتج عن ذلك تكوين جديد هو الماء . ألم تكن هذه الذرات الثلاث تحمل شرطها الديالكتيكي ؟ ألا تحمل في ذهنك التحليل للديالكتيكي للقوانين الموضوعية المتعلقة بالواقع المادي والايديولوجي والكوني ؟ اذن الديالكتيك يحمل كفكرة في الذهن ، وكواقع في وجود المادة وحركتها .

ان سخرية الناقد من فولي ان الانسان يحمل في أحشائه ديالكتيك الحياة والموت ، دلالة بالغة على اعتماده « النقد البشع » أو اللانقد (على غرار اللامعقول) أو النقد ضد النقد . والا فهل هذا اعتراض معقول أو مقبول من كلمة الاحشاء وايرادها بهذه الصيغة ووسط هذه الجملة ؟

ولو كان استعمالها تأتي بشكل نشاز لكان اعتراضه وجيها وفي بابيه . أما وان استعمالها كان ملانما فيبقى التفسير الاوحد هو النقد من حيث لا حاجة به .

ووجه اعتراض آخر هو كون الانسان حيا - ميتا في آن . ويدل هذا الاعتراض على عدم استيعابه للفكر الماركسي - اللينيني . فليست الماركسية مقولات تحفظ أو قوانين تعلق وسط اطار تشييب . وانما هي قبل كل شيء منهج علمي في التحليل والمعالجة والعمل . واذا لم يفهم الاستاذ عبد الجليل حسن كلامي البسيط فكيف به يستطيع هضم الفكر الماركسي برمته ؟ ففي داخل الانسان خلايا تحيا وتتجدد وأخرى تموت وتندثر . أليس في داخله الحياة (الخلايا الجديدة) والموت (الخلايا الشائخة) ؟ بالإضافة الى ان قوة مناعة الجسم واستمرارها دلالة على الحياة بينما وجود الجراثيم متربصة يشير الى مكان الموت . ولناخذ القلب البشري . انه محكوم عليه بالسكوت الابدي في أي لحظة . أليس هو عضوا حيا - ميتا في آن ؟ ولكن كون الانسان يتنفس ويأكل يشير الى غلبة عناصر الحياة على عناصر الموت . واذا ما ضمير جسمه فان العناصر الاخيرة تفوقت على الاولى . و وفاة الانسان لا يعني موته بالمفهوم الستاتيكي . فليس ثمة موت حقيقي كانهاء نوع واعدام عضوي كامل . وانما يتفسخ الجسم لتذهب الغازات الى الجو والعضويات الى التربة . وهكذا لا يوجد شيء اسمه موت كما تفهمه جداتنا العجائز !!

والحركة الديالكتيكية تحكم سائر العلاقات الاجتماعية والفكرية والطبيعية . وكل شيء في الكون له علاقة بالديالكتيك . فالمرض هو حصيلة العلاقة الديالكتيكية بين جرنومة ضارة وجسم حي . ولذلك ليس البشر والحيوانات يتعرضون للمرض بل وأيضا النباتات هي الاخرى تتعرض لامراض خاصة بها .

أما اعتراضك حول زج أدبيات الفكر الماركسي هنا ، فاسمح لي أن أخبرك أن ذلك لا يعتبر من قبيل الزج أو الاقحام . كما ان أدبيات الفكر الماركسي تصدى لسائر المصامين المتعلقة بالقوانين الموضوعية للحركة الاجتماعية والفكر البشري والكون الطبيعي (ظاهرة اجتماعية - الجريمة مثلا - أو فكر وفلسفة وأدب وفن أو الظواهر الكونية) وأخيرا وليس آخرا : انني كماركسي لا بد وأن أستخدم منهجي الفلسفي في التحليل والمعالجة .

وقد استنكر السيد عبد الجليل حسن اتهامي للجماهير العربية بالتعاس . ولكن ألسنت محقا في كلامي ؟ ما الذي بدأ من جماهيرنا

دار الأندلس

للطباعة والنشر والتوزيع

تقدم خالص تهانينا بالعام الجديد راجية أن
يعيده الله على امتنا العربية بالمجد والنصر

وتقدم آخر ما صدر عنها

الطب الشعبي

تأليف الدكتور امين رويحة

طبعة جديدة عليها زيادات هامة

وصفات من الطب الشعبي بطريقة علمية تشمل
الطب الحديث والتقديم .

التداوي بالايحاء الروحي

تأليف الدكتور امين رويحة

احدث ما قره الطب الحديث للتداوي

بالايحاء النفسي - التنويم المغناطيسي - اليوغا
مع ملحق عن مرض الربو أسبابه وعلاجه .

الواسعة بعد نكبة حزيران المشؤومة ؟ المفروض بها أن تحول الأرض
حما تحت أقدام الطفافة فتسحق الزعامات الفارغة المسؤولة عن ماساتنا
الدامية . ولكن أدنى شيء من هذا القبيل لم يحدث ، وإنما الذي
حدث استخفاف منقطع النظير بها من قبل بعض الحكام المجرمين الذين
لم يتورعوا في اشهار احتضانهم للرتل الخامس وكشف ارتباطاتهم
الغيبانية بالاجنبي المستعمر . ان الجماهير العربية ، واقولها بصراحة
ووضوح ، لم تكن في مستوى المعركة المصرية لانها « متفاسسة »
و « لا مبالية » . أما التظاهرات هنا وهناك فهي أساليب « كرتونية »
بالمقاييس الى الاسلوب الثوري . أسلوب دق اعناق المتواطئين مع موشي
ديان والصهيونية العالية والاستعمار العالمي والامبريالية الاميركية .
وكلمة أخيرة اقولها حول مقالتي « تنمية الفعالية الجماهيرية »
اذ انها لم تكن كلها ذات افكار جديدة وإنما ثمة افكار جديدة فيها
والبقية الباقية تبقى مجرد افكار متداولة ومتواترة . وإنما اتيانها
كان من باب ضرورة التماسك الفكري بين سائر مستويات المقالة .
ونادرة ، تلك المقالة التي تأتي بالجديد الجيد من الفها
الى يائها .

واود أن اهمس باذن السيد الناقد بانني لست راضيا البتة على
مقالتي . وقد ظل السؤال الملح يهاجمني اثناء الليل واطراف النهار :
- ألم أكن متسرعا في نشرها ؟
وكانت تتنازعني (لا) و (نعم)
لا : لان الكثير من مقالات « الاداب » في مستواها ، ان لم يكن
بعضها أدنى منها .
ونعم : لان المفروض ، حسب منهجي في التثقيف الذاتي ومساهمتي
في تنوير الآخرين ، أن أنشر الاجود والافضل . الا انه يرد على ذلك
بان أجود اليوم سيتجاوزه أجود الغد . وهكذا تستمر عملية الإبداع
الدائم والتطور الفكري .
بغداد
عبد القادر حافظ

بمناسبة الاعياد

تقدم

مكتبة انطوان

فرع الامير بشير

أغنى مجموعة من الكتب

العربية والاجنبية